مجلة جامعة الزيتونة الدولية للنشر العلمي
Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing
Issue N.27 –Vol.2 / ISSN :2958-8537

العدد السابع والعشرون (27) –المجلد الثاني
تاريخ 30 – 10 – 2024
(ص99 لـ ص 112)

العوامل السياسية ودورها في تدنيس المكان المقدّس: مكّة في القرن الثالث أنموذجاً

Political Factors and their Role in Desecrating the Holy Place: Mecca in the Third Century as an Example

د. محمّد الغريسي
باحث بمدرسة الدكتوراه جامعة الزيتونة – تونس
Ghrissi Mohamed
Researcher at the Doctoral School of Zaytouna University-(Tunis)
ghrissimohamed2260187@gmail.com

الملخص:

يفترض الأساس النظريّ لهذا البحث أنّ العوامل السياسيّة والثقافيّة التي عايشها المسلمون في صدر الإسلام ساهمت بشكل أو بآخر في تدنيس المكان المقدّس خاصّة مكّة؛ فحبّ الإنسان للسّلطة وتطلّعه لإشباع أهوائه وميولاته جعله إمّا يعتدي ويتجاهل هذا المكان على شرفه عند الله وعند المسلمين وإمّا يستثمره كليّا أو جزئيّا تحقيقا لمآربه. كما يفترض البحث أنّه أمام تطوّر طبيعة الحياة في المجتمع الإسلامي واتّساع الرّقعة الإسلاميّة لم يعد لمكّة كمكان مقدّس أيّ قيمة رمزيّة في أذهان بعض القادة السياسيين المتنفذين أو حتى في أذهان المارقين. فما معنى المقدّس؟ وفيم تتمثّل تجلياته خاصّة مكّة؟ وما هي مظاهر ودواعي تدنيسه؟

الكلمات المفتاحية: مكة، الأماكن المقدسة، التدنيس، صدر الإسلام

Abstract:

The theoretical basis of this research assumes that the political and cultural factors that Muslims experienced in the early days of Islam contributed in one way or another to the desecration of the holy place, especially Mecca. Man's love for power and his aspiration to satisfy his whims and inclinations made him either transgress and ignore this place because of its honor with God and Muslims, or invest it fully or partially to achieve his goals. The research also assumes that given the development of the nature of life in Islamic society and the expansion of the Islamic area, Mecca as a holy place no longer

has any symbolic value in the minds of some influential political leaders or even in the minds of deviants.

What is the meaning of sacred? Moreover, what are its manifestations, especially in Mecca? In addition, what are the manifestations and reasons for his desecration?

Keywords: Mecca, holy places, desecration, early Islam

مقدّمة:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان واستخلفه ومكّنه في الأرض حتى يعمّرها ولا يفسد فيها، ولا شكّ أنّه منذ وجوده على البسيطة عمل على اكتشاف كلّ ما يحيط به لأنّ الفهم يؤدّي حتماً إلى السيطرة، زد عليه وأنّه كان ولازال في حالة فعل وانفعال مع محيطه وربّما عدل عن التعلّق بما هو مادّي إلى ما هو مجرّد، وهذا يؤكّد أنّه كان يتلمّس إمّا فطريّا أو عقليّا مقدّسا قد يرى فيه مكامن القوّة أوقد يرى فيه ما يعجز هوعن تحقيقه أو الوصول إليه.

وهكذا ظلّ يفسّر مكامن القوّة وراء بعض الظّواهر الطّبيعيّة، بل جال نظره في الفضاء فتعجّب من الكواكب وعظمتها سيما الشمس والقمر والنجوم أو لعلّه تعجّب من عظيم ما خلق الله وما أودع في هذا الوجود من العظمة والجمال والقدرة... وبهذا كان الإنسان يقدّس كلّ أمر يعظم في عينه حبّا فيه أو رهبة منه، وكلّ ذلك ليشعر بالرّاحة النفسيّة والطّمأنينة على حاضره ومستقبله.

وتحقيقا لذلك تطوّرت أشكال التّعامل مع المقدّس ونسج الإنسان حوله أساطير الهيبة؛ فبات قصيّا عن النّقد والتّساؤل بل ربّما ضحّى بما هومن صلبه تقربا لهذا المعبود. وبهذا أضحى المقدّس جزءا لا يتجزّأ من حياة الإنسان وظهر في صور شتّى منها ما هو ما ورائيّ لا يسع أيّا كان مهما عظم فكره أن يحيط كنهه أو أن يدركه بعينه المجرّدة ومنها ما جسّد في تماثيل وعناصر أخرى كالنّار وتطوّرت تبعا لذلك طرق التقرّب للمقدّس مجرّدا كان أم مجسّدا استشعارا من الإنسان بقدرات معبوده الخارقة.

ولا ضير والحال هذه أن تتباين الرّؤى والمواقف من ظاهرة المقدّس قديما وحديثا بين مؤمن به وبدوره وبين رافض له ولدوره ويزداد عمق الهوّة بين المواقف كلّما ازداد الإنسان معرفة بالكون وبنواميسه وكلّما ازدادت انتاجات العقل البشريّ للعلوم الصحيحة والكميّة وغيرها. ومن هنا نتبيّن صلة المقدّس بالدّين والعبادة والتّسليم للقوى الخفيّة أو الظاهرة ولعلّي من خلال هذه الورقات العلميّة أوفّق في إماطة اللّثام عن موضوع العوامل السياسيّة ودورها في تدنيس المكان المقدّس: مكّة في القرن الثالث أنموذجا، وسلاحي في ذلك هو مجموعة من المناهج منها المنهج التّاريخيّ والمنهج التّحليلي فضلا عن المنهج المقارن والنقدي.

أوّلا: المقدّس: معناه ومثاله

أ-في معنى المقدّس:

تعرّضت المعاجم اللّغويّة إلى ضبط معنى المقدّس لفظيّا ودلاليّا. أمّا المقدّس في اللّغة فهو مشتقّ من الجذر (ق.د.س)، ويحمل بين ثناياه جملة من المعاني كالتّعظيم والتنزّه والطّهر والتنزّه عن النّقص والعيب والمماثلة ويؤكّد ذلك:

– ما جاء في لسان العرب من أنّ المقدّس، المبارك، والأرض المقدّسة الأرض الطّاهرة، ومن هذا بيت المقدس أي البيت المطهّر أي المكان الذي يتطهّر فيه من الذنوب، والتّقديس التطهير والتبريك.[1]

– جاء في المعجم الوسيط أنّ المقدّس هو المبارك وتقدّس بمعنى تطهّر وتنزّه.[2]

– جاء في القاموس المحيط: القدس الطّهر... والتقديس التّطهير.[3]

أمّا في الاصطلاح اللّغوي فإنّ معنى المقدّس يختلف باختلاف الحقول المعرفيّة المتّصلة به ممّا يجعل منه مصطلحا غامضا مثلما يذهب إلى ذلك نور الدين أفاية حيث اعتبر أنّه يصعب العثور على تعريف مقنع للمقدّس،[4] ولا نختلف معه في هذا المعنى إذ القدّيس مثلا مشتقّ من المقدّس وهو يعني الطّاهر وكذلك يدلّ المقدّس على الممنوع والمحرّم وبهذا يتراءى لنا التّباين الحاصل في دلالة المقدّس وهي الدّلالة التي تصل حدّ التضادّ مع المعنى الأصليّ.

وعموما، فإنّ المقدّس هو المعنى المقابل للمدنّس أوهو الشيء المخالف للدّنيوي.[5] وقد يكون المقدّس دنيويّا من جهة تكوينه ولكنّه يستمدّ قداسته من القوى الخفيّة التي حلّت فيه. وللإشارة فإنّ موسوعة لالاند الفلسفيّة عرّفت المقدّس بأنّه: "كلّ ما يتعيّن عليه أن يكون موضوع احترام دينيّ من قبل جماعة من المؤمنين، فالكائنات أو الأشياء المقدّسة هي تلك التي تدافع عن المحرّمات ويحميها بينما تكون الكائنات أو الأشياء المدنّسة هي الخاضعة لتلك المحرّمات والتي لا يجوز لها الاتّصال بالأولى إلاّ بموجب عبادات وشعائر محدّدة لكن هذا بالذّات لا يكون بلا تحفّظات وقيود لأنّ على القدسيّ أيضا أن يتجنّب في أحوال كثيرة الاتّصال بالدّنيوي المدنّس".[6]

وتعريفه كما في الموسوعة السابقة قائم على مقابلته بالمدنّس، وإن كانت مقابلة غير خالية من إشكالات تخضع للخلفيات الثقافيّة التي نستند إليها في تحديد مجالي المقدّس والمدنّس، والتي لا تنحصر حتما في العلاقة بالدينيّ، وهوما كان موضوع اشتغال عدد من الباحثين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا خاصة ومرسيا إلياد الذي اعتبر المقدّس تجربة يعيشها الإنسان عامة من حيث هو كائن منفتح على العالم ومتواصل معه بنفس اللغة التي يجسّدها الرمز.

جاء في القاموس الأنثروبولوجيّ أنّ المقدّس هو صلة يطلقها المجتمع على أشياء وأماكن وأعمال يعتبرها واجبة الاحترام فيقيم لها طقوسا دينيّة لاعتقاده باتّصالها بعبادة الإله أو الآلهة أو المعبودات والقوى فوق الطّبيعيّة أو لأنّها ترمز إلى القيم الأساسيّة للمجتمع، ولهذا فهي مصونة من العبث والتّخريب والمصطلح نقيض مصطلح غير مقدّس ويختلف تصنيف الأشياء والأماكن والأعمال إلى مقدّس وغير مقدّس باختلاف الجماعات وما تتواضع عليه.[7] كما حدّد عالم الاجتماع

1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت–لبنان، ط3، 1414هـ، 168/8.

2) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط، د.ت، 719/2.

3) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط8، 2005، ص 565.

4) أفاية، محمّد، الغرب المتخيّل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلاميّ الوسيط، المركز الثقافي العربي للنّشر، بيروت–لبنان، ط1، 2000، ص45.

5) مرسيا إلياد، المقدّس والمدنّس، ترجمة عبدالهادي عبّاس، دار دمشق–سوريا، ط1، 1988، ص 16.

6) موسوعة لالاند الفلسفيّة، ترجمة وتحقيق خليل أحمد خليل، دار عويدات للنّشر والطّباعة، بيروت، ط2، 2001، ص ص 1229–1230.

7) شاكر، سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، ط1، 1981، ص 837.

الفرنسي إميل دوركايم في كتابه الأشكال الأوليّة للمقدّس للحياة الدينيّة قدسيّة المقدّس بما يبعدها بشكل كامل عن مجال المدنّس، فبقدر ما يحيل المقدّس داخل سـياق تعارضـه مع المدنّس إلى ما هو طاهر وخالص فإنّ المدنّس يحيل إلى ما دنيوي ونجس.[1]

وهكذا قد يكون المقدّس مطلقا وغير مألوف أوما ورائي فيكون تفسيره تبعا لذلك مضنٍ والإنسان لا يركن إلى تفسير واحد لهذا المقدّس بحثا منه عن الحقيقة التي يريدها أن تتجلّى ولعلّ تلك جبلّة طبعت الإنسان منذ بداية تكوينه، ففي بداياته لم يهنأ بالجنّة ونعيمها بل طلب الخلد، ومنذ ذلك الوقت لم يهدأ فكره عن طلب ما هو قصيّ عن عالمه وحدوده؛ فراح يقدّس مقدّسات كثيرة يستلهم منها سحرها وقوّتها ويهيم بالاتّصال بها. وبهذا تباينت المقدّسات بين الأمكنة والأزمنة والأشخاص وغيرها قديما وحديثا، ولكنّنا نروم البحث عن مكّة كمكان مقدّس وكيف دنّستها السياسة ولذلك سنعمل على الحفر المعرفي في صفحات التّاريخ منذ صدر الإسلام وحتّى زماننا المعاصر لنميط اللّثام عن بعض الأحداث التّاريخيّة التي دنّست المقدّس لاتّصالها بالسياسة.

ب–قداسة الأمكنة: مكّة أنموذجاً

اقتضت الإرادة الإلهيّة أن يخلق النّاس متباينين ومختلفين ولوشاء لجعلهم أمّة واحدة ولذلك خلقهم فنتج عن ذلك تنوّع للثّقافات والحضارات التي تعاقبت بين مكان وآخر ووسمت هذه الأماكن بإنتاجات ماديّة وطقوسيّة اتّصلت بطريقة أو بأخرى بأماكن مختلفة، وهذه الأماكن تستمدّ قدسيّتها وتميّزها عن غيرها عقب توافق مجموعة على الإعلاء من شأن ذلك الموطن لاتصاله بأحداث تاريخيّة، فالقرآن مثلا في معرض حديثه عن قصة موسى يقول: ما يكشف قدسيّة بعض الأماكن عن غيرها.

تتعدّد الأماكن المقدّسة في الخيال الجمعي لدى المسلمين ومردّ ذلك ما اتّصل بهذه المقدّسات بأحداث تاريخيّة أو بأشخاص ذوي شأن رفيع كالأنبياء لما مثّلوه من أبعاد رمزيّة تحدّد عهد الأجيال اللاّحقة بأسلافهم، فمكّة مثلا تستمدّ قداستها من تاريخها بدرجة أولى لأنّ العرب حتى قبل الإسلام كانوا يعظّمون شأنها بل كانت مركزا للإشعاع الحضاري فكانوا يمارسون طقوسهم تحت جدرانها ويتبرّكون بها ويحجّون إليها سنويّا ويعقدون فيها المؤتمرات والملتقيات والمحاكمات وغيرها، بل يعلّقون ما جادت به قريحة شعرائهم على جدرانها.

تعتبر مكّة أقدس مقدّسات المسلمين، كيف لا وهي قبلتهم في شعائرهم وطقوسهم ويؤكّد ذلك ما ورد في النّصوص التّأسيسيّة من دلالة على قدسيّتها؛ فالقرآن يذكرها بين دفّتيه بألفاظ مختلفة منها البيت وأمّ القرى وبكّة ومكّة والبلدة والبلد وغيرها من المسمّيات التي وردت بصيغ تعظّم وتمجّد هذا المكان، ألا ترى في قوله تعالى:" **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ(3)** [2] وقوله تعالى: **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ**

1) راجع: Durkheim Emile: Elementary forms of Religious Life ,London: G. Allen Unwin, New York , Mack millan,1915 .

2) التين 1-3.

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ(67)" [1]، ما يدلّ على القيمة العليّة التي يعطيها الله لهذا المكان لدرجة أنّه يقسم به.

ويستمدّ هذا البلد قداسته من قيمة البيت الذي يحويه وهو الكعبة وهي رمز دينيّ ارتبطت به شعائر المسلمين الحجّ والعمرة قال تعالى:" **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(27)** [2]. ولا شكّ أن هذا البيت يرجع تاريخه إلى إبراهيم وإسماعيل حيث رفعا قواعده وطهّراه ويشهد بذلك قول الله: "**وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(125)** [3]، فكان العهد رابطا بين الله من جهة وإبراهيم وولده من جهة أخرى. ولا يختلف عاقلان في أنّ الآية تشير وتصرّح بملكيّة الله تعالى لهذا البيت ونسبته لذاته الشريفة؛ فهذا البيت الذي يربط إبراهيم وأمته بالله هو الآخر يربط محمّدا وأمّته بإبراهيم والله تعالى.

وعبّرت السنّة أيضا مثلها مثل القرآن عن مكانة مكّة وليس أدلّ على ذلك من قول النبيّ ص –وهويهمّ بالهجرة إلى يثرب–: «والله إنّك، لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إليّ، والله لولا أنّي أخرجت منك ما خرجت».[4] وهي أيضا مثوى الأنبياء أحياء وأمواتا فقد "كان النبيّ من الأنبياء إذا هلكت أمّته لحق بمكّة فتعبّد فيها ومن نجا معه حتّى يموت، فمات بها نوح وهود وصالح وشعيب وقبورهم بين زمزم والحجر".[5] وقد يطول بنا المقام ونحن نتتبّع أسباب قدسيّة مكّة كمصر من الأمصار لكنّ المسلمين يقدّسونها لارتباطها بدعوة النبيّ محمّد ص الذي شبّ وترعرع بين صحاريها وشعابها ففيها "ولد الرّسول ونشأ الإسلام وبدأت الدّعوة إلى الدّين الجديد".[6]

ثانياً: مظاهر تدنيس المقدّس:

أ–حرق الكعبة في العهد الأمويّ:

رجّح ابن الزبيّر أنّ مكّة هي البلد الأنسب لمعارضة الأمويّن والمكان الوحيد الذي يمكن اللّجوء إليه في مثل تلك الفترات العصيبة إذ باقي الأقاليم لا يمكن ضمان ولائها وما فعلوه بالحسين غير بعيد وهو خير دليل على ذلك. أضف إليه وجود بيت الله باعتباره بلدا حراما لا يجوز سفك الدّماء به وهذا يضمن لمن يعتصم بها حماية من القتل كما أنّها مكان له قدسيّته في نفوس المسلمين، إذ كلّ من يتعرّض له بالإيذاء سيواجه معارضة شديدة من قبل المسلمين الذين سوف لن يتهاونوا في الذّود عن بيت الله الحرام. دون أن ننسى أن مكّة قبلة المسلمين في موسم الحجّ ويمكن أن يكون الحجّ مناسبة لتأطير المعارضة وتوجيه الرّأي العامّ خاصّة وأنّ الأمويين ليست لهم فيها نفوذ وبالتّالي سيعمل ابن الزبيّر على

1) العنكبوت 67.

2) الحجّ 27.

3) البقرة 125.

4) سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل مكّة، ح 3108.

5) الأزرقي، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح، دار الأندلس للنّشر، بيروت –لبنان، د.ت، 133/2.

6) الجمل، بسّام، ليلة القدر في المتخيّل الإسلامي، دار خطوات للنّشر، دمشق –سوريا، ط1، 2007، ص 118 .

استغلال عامل الزّمان والمكان لنشر روح ثورته. عمل ابن الزبير والمسور بن مخرمة[1] وعبد الله بن صفوان[2] ومصعب بن عبدالرّحمن بن عوف وغيرهم على محاولة تغيير الواقع السياسيّ لما رأوه من تحوّل الخلافة إلى ملك فضلا عمّا أشيع حول يزيد من أخبار أعطت صورة سيّئة للخليفة الأمويّ، وكان يهدف بثورته تلك أن ترجع الأمّة إلى حياة الشورى مستغلاّ المشاعر العاطفيّة التي رافقت مقتل الحسين وما يتبع ذلك من عزم البعض على بيعته أمام السّخط الذي عمّ أرض الحجاز ولم يكن بمنأى عن هذه الأحداث فقد أرسل إليه رسالة يذكّره فيها بفضائله ومآثره في الإسلام ويحذره من الفتنة والسّعي لتأجيجها.

لما لم يستجب ابن الزبير لدعوة يزيد، أقسم يزيد على أنّه لا يقبل بيعته حتى يأتي إليه مغلولا. ولقد حاول معاوية بن يزيد أن يثني والده عن قسمه لمعرفته أنّه سيرفض القدوم وهو في الغلّ وحتى يخفّف يزيد من صعوبة الموقف على ابن الزبير بعث إليه بعشرة من أشراف أهل الشّام وبعث له معهم "جامعة من فضة وبرنس خز"[3]، ولكن بعد محاورات فصل بعضها خليفة بن خياط في تاريخه جاء ردّ ابن الزبير على الوفد بالمنع.

أمام تعنّت ابن الزبيّر رأى يزيد أنّه لم يبق له من حلّ سوى القيام بعمل عسكري يهدف من وراءه إلى القضاء على ثورة ابن الزبيّر أو حمله على الامتثال لبيعته، فلما حجّ عمرو بن سعيد بن العاص والي المدينة بالنّاس حجّ معه ابن الزبير ولم يصلّ لصلاته ولا يفيض بإفاضته.[4] وهذا خروج واضح من ابن الزبيّر على الدّولة وعدم اعترافه بها خاصّة وأنّ موسم الحجّ يمثل رمزا لوحدة الدّولة وشرعيتها وقوّة سلطانها وكان ابن الزبيّر يتصرّف وأتباعه، وكأنّهم مستقلّين عن الدّولة وكان يبيّن لهم أهميّة الشورى في الحكم ويشهّر بالأخلاق السيّئة ليزيد وجرائم بني أميّة. هذا الأمر دفع يزيد بأن يوجّه جندا لعمرو بن سعيد تحت قيادة عمرو بن الزبيّر(ت60هـ/680م) أخو عبد الله بن الزبير وعدوّه.[5]

أظهرت هذه الأحداث ابن الزبيّر أنّه طالب حقّ يواجه خليفة ظالما وما زاد تعاطف النّاس معه هو خطاب عمرو بن سعيد لما رقى المنبر وخطب قائلا: "والله لنغزوّنه ثمّ والله لئن دخل مكّة لنحرقها عليه على رغم أنف من رغم".[6] وعارضه في ذلك مروان بن الحكم. وكان ابن الزبيّر قد اختار لقبا مؤثّرا في نفوس المسلمين حين أطلق على نفسه العائذ بالله، فكان كلّ مدافع عن الحرم المكّي سوف يكون متعاطفا مع قضيّة ابن الزبير.

---

1) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري، أبوعبد الرحمن: من فضلاء الصحابة وفقهاهم. أدرك النبي صلّى الله عليه وسلم وهو صغير وسمع منه. وكان مع خاله عبد الرحمن بن عوف، ليالي الشورى، وحفظ عنه أشياء. وروى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من أكابر الصحابة. وشهد فتح إفريقية مع عبد الله بن سعد. وهو الّذي حرض عثمان على غزوها. ثم كان مع ابن الزبير، فأصابه حجر من حجارة المنجنيق في الحصار بمكة فقتل.

ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 1415هـ، 94/6.

2) عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحيّ عدّه البعض من الصحابة وعدّه آخرون من كبار التابعين... شجاع، كان من أشراف قريش، وكان مع ابن الزبير في خلافته يقوّي أمره، ولم يزل معه حتى قتلا جميعا. م.ن، 13/5.

3) ابن خياط، خليفة ، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، 1397هـ، 1/ 251–252 .

البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت–لبنان، ط1، 1996 ،5/ 3075 /

م،ن، 5/ 3126

خليفة خياط، تاريخ خليفة، 1/ 233 .7

كان لهذه القضـــايا أثر معنوي وحســـيّ في النّفوس فتعاظمت مكانة ابن الزبيّر لدى أهل الحجاز، والتفّ النّاس حوله وعاونوه في الوقوف في وجه أخيه عمرو بن الزبيّر حتّى قيل له:"كان غيرك أولى بهذا منك، تســير إلى حرم الله وأمنه وإلى أخيك في سنّه وفضله...".[1]

استطاع ابن الزبير بفضل دهائه وحنكته أن ينتصر على الجيش الذي يقوده أخوه ثم يقوم بأسره ودعوة النّاس للقصاص، وتداولوا عليه حتّى لقي حتفه. نقل الذهبي عن عبدالله بن الزبيّر قوله: "من كان يطلبه بشـــيء فليأت، فجعل الرّجل يأتي فيقول: قد نتف شـــفاري، فيقول: قم فانتف أشـــفاره، وجعل الرّجل يقول: قد نتف لحيتي، فيقول: انتف لحيته، فكان يقيمه كلّ يوم، ويدعو النّاس للقصاص منه، فقام مصعب بن عبد الرّحمن فقال: قد جلدني مائة جلدة، فأمره فضربه مائة جلدة، فمات".[2]

تعرّض ابن الزبيّر إلى انتقادات واسـعة جرّاء تعذيب عمرو ولامه بعض الباحثين المتأخرين وقد نعذره لأنّه كان يروم العودة بالحكم إلى ما كان في عهد عمر بل إنّه لا يتوانى في أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه وهؤلاء الباحثون قد ذكروا أنّ ســـبب تعريضـه للقصـاص هو حقد دفين بين الأخوين، غير أنّ ذلك مردود لأنّ عبد الله بن الزبير كان قد جرى بينه وبين أخيه محاورات من أجل العدول عن مساندته للأمويّين فيما نقل الذهبي أنّ عمرو كان يأتمّ بصلاة أخيه ولكنّ عبدالله قد تنازل عن حقّه دون أن يتنازل عن حقّ غيره.

وفي خضـمّ هذه الأحداث، لا يسـع الباحث نسيان ما جرى من أحداث بالمدينة حيث نفّذ مسـلم بن عقبة مخطّط يزيد في المدينة وفي طريقه لابن الزبيّر لقي حتفه وتولّى القيادة من بعده الحصـين بن نمير (أوصى بذلك يزيد)، ووصـل إلى مكّة وعسـكر بالحجون،[3] وعمل على نشـر جيشـه على مسـافة واسـعة. وانبرى ابن الزبير يحرّض النّاس على قتال أهل الشّـام وانضمّ إليه المنهزمون في معركة الحرّة.

لم تكن المعركة متكافئة من حيث العدد فمني ابن الزبير بفقدان خيرة أصـــحابه وبعد مرور ثلاثة أيام من ربيع الأول عام 64 هجري، نصب الحصين بن نمير المنجنيق على جبل أبي قبيس[4]، وفقد ابن الزبير أبرز مناصريه ومستشاريه وهو المسور بن مخرمة [5]بعد أن أصـــيب بفعل حجارة المنجنيق، فانكشـــفت مواقع ابن الزبير وحوصـــر ولم يعد يملك ســـوى أن يلوذ بالمسجد الحرام بعد أن فقد مواقعه.

تسبّبت أحجار المنجنيق في حرق الكعبة وهي مصيبة أخرى تضاف إلى سجلّ مصائب يزيد التي نجمت عن استحلال البيت الحرام الذي حرم الله ورسـوله القتال فيه. قال أبو العرب:"كان الحصـين بن نمير قد نصـب المجانيق على أبي قبيس

1) الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط2، 1993، 199/5.
2) م.ن، 199/5.
3) بفتح أوّله، على وزن فعول: موضع بمكّة عند المحصّب، هو الجبل المشرف بحذاء المسجد، الذي يلي شعب الحرّارين البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب بيروت-لبنان، ط/3، 1982، 427/2
4) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت -لبنان، ط2، 1995، 1/ 80
5) المســـور بن مخرمة بن نوفل يكنّى أبا عبد الرحمن، وكان مولده بعد الهجرة بســـنتين، وقدم المدينة في ذي الحجة بعد الفتح ســـنة ثمان، حفظ من النبي ﷺ أحاديث. ابن حجر، الإصابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط1، 1415هـ، 94/6.

وعلى قعيقعان فلم يكد أحد يقدر على أن يطوف بالبيت فأسند ابن الزبير ألواحا من السّاج على البيت وألقى عليها الفرش والقطائف فكان إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت وكانوا يطوفون تحت تلك الألواح فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبروا وكان طول الكعبة يومئذ في السماء ثمانية عشر ذراعا وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية المسجد فكلّما جرح رجل من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط. قال فجاء رجل من أهل الشام وفي طرف سنان رمحه نار فأشعلها في الفسطاط وكان يوما شديد الرّيح فوقعت النّار على الكعبة فاحترق البيت والسّقف وانصدع الرّكن وأحرقت الأستار وتساقطت إلى الأرض".[1]

تجمع أغلب المصادر أنّ الكعبة لم تكن مقصودة في ذاتها بالإحراق، بل إنّ عمليّة الحرق خلّفت ذهولا وخوفا لدى الفريقين حين قال ابن الزبير: "اللهمّ إنّي لم أتعمّد ما جرى فلا تهلك عبادك بذنبي وهذه ناصيتي بين يديك"[2]، "وأهل الشّام بالرّغم من جهل بعضهم بابن الزبيّر ومكانته إلاّ أنّه من المستحيل أن يجهل أحد منهم مكانة الكعبة، كيف وهم يتّجهون إليها في صلاتهم عندما كانوا يحاصرون ابن الزبير"،[3] وفي هذه الأثناء هلك يزيد بن معاوية واعتلى سدّة الحكم ابنه معاوية وعرف بصلاحه وله مواقف مؤثّرة منها سعيه في ثني والده يزيد عن إحضار ابن الزبيّر مسلسلا إلى الشّام.

وبعد مقتل ابن الزبيّر عام عمل الحجاج على تشويه صورته لكي يبرّر مقتل أحد رؤوس المعارضة معتبرا أنّه ألحد في الحرم المكيّ ونازع الخلافة أهلها وفي خطابه السياسي أراد أن يقلّل من شأن حادثة حرق الكعبة ومن قتل ابن الزبيّر فأشار إلى أنّ "آدم كان أكرم على الله من ابن الزبيّر وكان في الجنّة وهي أشرف من مكّة، فلمّا خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نهى عنها أخرجه الله من الجنّة... فإن ابن الزبير كأن من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله وألحد في حرم الله، ولو كانت مكة شيئا يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شيء، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، وإن ابن الزبير غير كتاب الله".[4]

ومن هنا يظهر أنّ حرب الأمويّين ضدّ خصومهم جعلتهم يتخلّون عن المبادئ والقيم إزاء مقدّسات المسلمين وخاصّة بيت الله الحرام وكلّ سببه إتّباعهم الهوى وقد يعجب الباحث من جرأة هؤلاء على فعلهم رغم علمهم بما جاء من النّهي عن حمل السّلاح أو الصّيد أو قطع الشّجر في هذا الحرم، وهل يقبل العقل أن مسلمًا يصلي الخمس مستقبل القبلة يفعل هذا في حرم الله الذي كان مأمنا في الجاهلية يأمن فيه الطير فما بالك بالإنسان؟ وهذا ما يجعلنا نقرّ بأنّ السياسة من شأنها أن تدنّس المقدّس.

أ. سرقة القرامطة الحجر الأسود: تعتبر الحركة القرمطيّة عمليّة مرحليّة نشأت لأهداف معيّنة في تلك الحقبة ولا ريب أنّها كانت بشكل أو بآخر تتحرّك تبعا لمخطّط عمليّ مدروس يتأسس على خداع الجماهير واستغلال عواطفهم تجاه آل

1 أبوالعرب، المحن، تحقيق عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض، السعوديّة، ط1، 1984، 2042/1

2 الأصفهاني، أبوالفرج، الأغاني، تح: علي بن محمد بن الحسن الأموي، دار الكتب المصرية، د.ت، 2273/3

3) الشيباني، محمد بن عبد الهادي، مواقف المعارضة في عهد يزيد بن معاوية، دار طيبه الرياض، ط/2، 2009، ص ص، 678-679

4) ابن كثير، البداية والنّهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1988، 366/8.

البيت. وزعم صاحبهم "أنه الّذي بشّر به أحمد بن محمد ابن الحنفية، وجاء بكتاب تناقله القرامطة".[1] وعمدوا إلى بناء مركز لدعوتهم قرب الكوفة سمّوه دار الهجرة واتّخذوه منطلقا لبثّ أفكارهم وتجميع العناصر التي اقتنعت بنظرتهم بل بخداعهم، يقول عنهم ابن الجوزيّ في المنتظم: "ومقصدهم الإلحاد وتعطيل الشرائع وهم يستدرجون الخلق إلى مذاهبهم بما يقدرون عليه، فيميلون إلى كل قوم بسبب يوفقهم ويميّزون من يمكن أن ينخدع ممّن لا يمكن، فيوصون دعاتهم فيقولون للداعي: إذا وجدت من تدعوه فاجعل التشيّع دينك، ادخل عليه من جهة ظلم الأمّة لعليّ بْن أبي طَالِب وقتلهم الحسين وسبيهم لأهله".[2]

عمل القرامطة الأوائل وعلى رأسهم زعيمهم الذي تُنسب إليه هذه الطائفة وهو حمدان القرمطي (293هـ-906م) جنبا إلى جنب مع الإسماعيلية، داعيا إليها، ومؤمنا بها، وكانوا يقولون "جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحباؤه وكانوا يقولون أنّهم لا يموتون ولكنّهم يرفعون إلى السماء"[3]، وكانت الحركة الإسماعيلية تسير وفق مخطط دعويّ دقيق، وتنظيم هرميّ على غاية من التّعقيد والسريّة لضمان عدم انكشافها أمام السلطات العباسيّة التي كانت تتبّع أيّ حركة علويّة يُشمّ من ورائها الاشتباه في إمكانية قيامها بمعارضة مسلّحة. واتخذوا من مدينة واسط العراقيّة مقرا لهم في بادئ الأمر، حيث كان جوّها ملائما لنمو الدّعوة وانتشارها، وكان جلّ أهلها من الفقراء وممّن وقعت عليهم مظالم من ولاّة الحكم العباسيّ، ومن هنا استجاب أكثرهم إلى القرامطة، وانخرطوا في صفوفهم.

وهؤلاء القرامطة قوم من الباطنية تبعوا طريق الملحدين وجحدوا الشّرائع وتعلّقوا بمذاهب مثل زرادشت ومزدك؛ فكانوا ينتحلون المحظورات، وهكذا سوّل لهم الشّيطان آراء ومذاهب ما أنزل الله بها من سلطان. وظلّوا ينشطون سرّا حتى أظهر أبوسعيد الجنابي الدّعوة بالبحرين سنة ستّ وثمانين واجتمع إليه القرامطة والأعراب، وقتل واستباح وسار إلى القطيف طالبا البصرة. ثم قرب أبوسعيد من نواحي البصرة، وبعث المعتضد إليهم المدد مع عبّاس بن عمر الغنويّ وعزله عن فارس وأقطعه اليمامة والبحرين، وضمّ إليه ألفين من المقاتلة، وسار إلى البصرة.[4]

أعمل القرامطة السيف في الناس ولم يزالوا يعيثون في البلاد ويكثرون فيها الفساد من القتل والسّبي والنّهب والحرق إلى سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فحجّ الناس فيها. ثم وافاهم أبوطاهر القرمطي[5] بمكّة يوم التّروية، فنهبوا أموال الحجّاج وقتلوهم في المسجد الحرام بل في البيت نفسه؛ وسرقوا الحجر الأسود[6] وأنفذه أبوطاهر إلى هجر، فخرج إليه أمير مكّة في جماعة من الأشراف فقاتلوه فقتلهم وقلع باب الكعبة، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن

1) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط2، 1988، 419/3.

2) ابن الجوزيّ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1992م، 293/12.

3) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة البخانجي، القاهرة -مصر، د.ت، 143/4.

4) م.ن

5) أسند السلطة من بعده بوصية منه لابنه الصغير أبي طاهر فتقلد زمام الأمور سنة 305هـــ بعد فترة انتقالية تولاها أخوه الأكبر لتمكينه من بلوغ سن الرشد.

6) راجع : ابن عساكر، تاريخ دمشق، عمروبن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1995، 362/13.

الباقين في المسجد الحرام من غير كفن ولا غسل ولا صلاة على أحد منهم. وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه. وقد عظم أمر هؤلاء الوحوش وهم يروّعون الأنفس وينتهكون الأعراض والحرمات وينهبون المال والمتاع ويعتدون على الضّعفاء. بلغ أمر القرامطة في انتهاك مكّة كمكان مقدّس حينما هاجموها وأقاموا بمكّة ستة أيّام وهم يعملون السيف في كلّ بشر وشجر وظلّوا يقتلون وينهبون ويقترفون من الأفعال ما تقشعرّ له الأبدان تأسيّا بمزدك الذي كان ينهى الناس عن المخالفة، والمباغضة. ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النّساء والأموال، أحلّ النّساء، وأباح الأموال، وجعل النّاس شركة فيهما، كاشتراكهم في الماء، والنّار والكلإ. وحكي عنه أنّه أمر بقتل الأنفس، ليخلّصها من الشرّ.[1]

وكان من أعظم ما فعلوه هو سرقة الحجر الأسود الذي أبقوه في الأحساء ثم صاح زعيمهم: "أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟ ثم قلع الحجر الأسود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة حتى ردوه ".[2] وهكذا ظلّ الحجر الأسود في حوزة القرامطة حتى بلغوا أوج قوّتهم، بعد أن ضمّوا إليهم بلاد عُمان وهاجموا الكوفة والبصرة مرارا، وكانت هزيمة مذلّة للعباسيّين، وأكبر إهانة للإسلام والمسلمين في أحد أركانه، ولم تقو السلطة الحاكمة آنذاك على فعل شيء أمام هذا الإجرام القرمطي، وقرّروا معهم صلحا مقابل دفع فدية سنوية هائلة تُقدّر بـ 120 ألف دينار ذهبيّ، وفي عام 337هـ وبعد وساطة شاقّة، ودفع أموال هائلة استلم العباسيون الحجر الأسود وأرجعوه إلى مكانه مرة أخرى.

يظهر ذلك الوظيفة الرمزيّة للحجر الأسود فيما يحمله من بعد روحيّ[3] فهو يرمز لقدرة الله في الأرض فيصبح القبول بهذا الحجر قبولا بالله واعترافا بوجوده وتعظيم الحجر هو شعيرة يستحيل من ورائها المقدّس الأرضي سبيلا إلى الاتّصال بالمقدّس العلويّ. كما للّون الأسود أيضا رمزيّة فقد دلّت الأثار أنّ هذا الحجر كان لونه أبيضا لكن سوّده المشركون وأصحاب الذّنوب حينما كانوا يتمسّحون به؛ فقد نقل الأزرقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: «كان الحجر الأسود أبيض كاللبن، وكان طوله كعظم الذراع، وما اسوداده إلاّ من المشركين، كانوا يمسحونه، ولولا ذلك ما مسّه ذو عاهة إلا برأ».[4]

كان من تجليّات قداسة مكّة إقبال النّاس على تقبيل الحجر الأسود تأسيّا بالنبيّ ص وهذا ثابت كما في صحيح البخاريّ أنّ عمر رضي الله عنه جاء إلى الحجر الأسود فقبّله، فقال: «إنّي أعلم أنّك حجر، لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلّم يقبّلك ما قبّلتك».[5] ويضاف إلى ذلك من أنّ الدّعاء عنده مستجاب وأنّ له خواصّ أخرى، ولا غرابة أن ترى زوّار الحرم يتدافعون على تقبيله أو التمسّح به، وهذا رغم أنّ الإسلام حارب عبادة الأوثان لكنّه ترك تقبيل الحجر كأحد تجليّات عبادة الإله وشكلا من أشكال حضوره في العالم المشاهد.

---

1) الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسّسة الحلبي، د.ت، 54/2.

2) ابن كثير، البداية والنّهاية،، 182/11.

3) Jean Chevalier, dictionnaire des symboles, Edition revue et augmentée. Robert Laffont/ Jupiter, P758

4) الأزرقي، أخبار مكّة، 328/1.

5) صحيح البخاري، كتاب الحجّ، باب ما ذكر في الحجر الأسود، ح 1597.

ومن مظهرات قداسة الحجر في نظر المسلمين العروض الماليّة التي قدّمتها السلطة العباسيّة لصالح القرامطة حتّى يعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه. ولا شكّ أنّ إقدام القرامطة على ردم بئر زمزم بالجثث فيه تدنيس لهذا المقدّس لأنّ النّاس يقومون بغسل الكعبة بماء زمزم في أجواء احتفاليّة خاشعة ويعطّرونها بشتّى أنواع العطور وهكذا يتحوّل مشهد غسل الكعبة إلى حدث مقدّس.

ويتواصل خرق القرامطة لقدسيّة الكعبة بإقدامهم على تقطيع كسوة الكعبة وتقاسمها بين الجنود وقتل النّاس تحت أحجارها فضلا عن تقطيع إحرام الكعبة، وهذا فيه تدنيس بشع للمنزلة السنيّة التي تحظى بها الكعبة في نفوس المسلمون.

وأمام وحشيّة القرامطة ظهرت بعض الفتاوى التي علّق أصحابها فريضة الحجّ حتّى يستتبّ الأمن خوفا على الأرواح البشريّة من أن تزهق إمّا في الطّريق أوفي البلد الحرام، زد عليه أنّ السّلطة الحاكمة وضعت في موقف حرج أمام عموم المسلمين نظرا لعدم قدرتها على التخلّص من هذه الفرقة الضالة وعدوانها الغاشم على المسلمين ومقدّساتهم. وكأنّ القرامطة راموا تدنيس البيت عمدا والحطّ من شأنه بل كانت سرقة الحجر الأسود عمليّة ممنهجة لتغيير قبلة النّاس وصرف وجوههم نحو البحرين لعلمهم بما يدرّه موسم الحجّ على أهل البلد من أموال وهدايا من كلّ فجّ عميق.

ومهما يكن من أمر فقد كشف المسلمون من خلال تعلّقهم بمكّة ومواجهتهم لعدوان القرامطة ودفعهم للغالي والنّفيس من أجل استرجاع الحجر الأسود أنّهم يوالون مكّة ومن والاها ويعادون من عاداها من خلال استجابتهم للنّصوص التأسيسيّة التي تعظّم هذا البلد لما يكتسيه من وظائف خاصّة الروحيّة منها فمكّة في تصوّر المؤمنين مكان يُتطهّر فيه من الشرور والآفات والآثام.

وهكذا فالمكان المقدّس يحظى بمعاني الرّهبة والجلال ما يستفزّ الوجدان ويبعث على الأمن والأمان لأنّ مكّة حرم آمن وزائرها مأمون الغوائل "فكم أوى إليها من خائف يطلب من يجيره فيجده ويلجأ إليه ويأمن وكم من رجل حمل معه فداء أسيره ففكّه من آسره وكم من سادات تحمّلوا ديّات ودماء فكانوا سبب الصّلح بين قبيلين كبيرين بل إنّا لنسمع فيها منادين ينادون ذوي الحاجات لتقضى حاجاتهم".[1]

ولعلّ القرامطة حينما راموا تحطيم قدسيّة مكّة إنّما قصدوا تحطيم الوحدة المعنويّة لمخالفيهم وترهيبهم وإظهار أنّ قدسيّة المكان لن تحول بين الحجّاج والموت، والظّاهر أنّ العناصر التي دخلت في الإسلام حديثا والتي رأت أنّ السلطة الحاكمة لم تحقّق تطلّعاتها عوّلت على سواعدها فضلا عن معاول الهدم الفكري والعقديّ فراحوا يسومون النّاس سوء العذاب يذبّحون أبناءهم ورجالهم ويفعلون الأفاعيل بنسائهم.

كما أنّ سرقة الحجر الأسود واقتلاعه من مكانه هو سعي إلى امتلاك سلطة مقدّسة يخضع لها كلّ مؤمن بها في مشارق الأرض ومغاربها وما كان تحويله إلى البحرين وإبقاؤه إلاّ طمعا في امتلاك سلطة روحيّة وسعيا إلى بسط نفوذ سياسيّ قرمطيّ. ولا ريب أنّ صرف النّاس عن مكّة وتوجيههم للبحرين يجعل من هذا البلد بلدا مقدّسا لاحتوائه على الحجر

1) الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهليّة والإسلام، دار العروبة للنّشر والتّوزيع، الكويت، ط4، 1993، ص ص90-91.

المسروق ما يعني استقطاب أكثر عدد من الزوّار الأمر الذي يخلق حركة اقتصاديّة فيتوحّد النّاس تحت الرّاية القرمطيّة ويعدلون عمّا سواها وربّما تسقط ما سواها من الدّول وتخلّد الرّاية القرمطيّة ويتقاطر النّاس على الدّخول تحت لوائها.

الخاتمة:

وبعد هذا العرض الذي طوّف بنا في موضوع تدنيس المكان المقدّس: مكّة في القرن الثالث أنموذجاً انتهينا إلى النتائج الآتية:

بيان أنّ المقدّس هوا لوجه المقابل للدنيوي أي المدنّس ومع ذلك فهذا المقدّس قد يكون مدركا لتعلّقه بحياة المجتمع من جهة أو لقابليّته للتغيّر والتجسّد تبعا لتطوّر الوعي البشري الذي لا يتوانى عن جعله متاحا للإدراك الحسيّ من جهة أخرى.

توضيح أنّ المقدّس هو مقدّسات فقد نلمح أشخاصا أوأماكن أو أزمنة أو كتباً ولكن الذي ركّزنا عليه كان مكّة باعتبارها بنية رمزيّة لم تنشأ دفعة واحدة بل مرّت بسيرورة تاريخيّة من الأزمنة القديمة مرورا بالعصور الوسطى وصولا إلى الأزمنة الحديثة ومع ذلك فقد حافظ هذا المكان المقدس على رمزيته لاتصاله بالدين الإسلاميّ.

إبراز أنّ تعلق أفئدة النّاس بمكّة كمكان مقدّس لم يمنع من استثمار أبعاد هذا المكان استثمارا سياسيّا وليس أدلّ على ذلك من تعلّق البعض واللّجوء إليه أثناء ثوراتهم مثلما فعل ابن الزبيّر أو العائذ بالبيت كما سمّى هو نفسه، زد عليه أنّ الأمويّين حينما راموا تخويف معارضيهم وترهيبهم بل وتركيعهم إنّما لجؤوا إلى ضرب خصومهم حتّى وإن تحصّنوا بمكّة بيت الله الحرام.

استحضار أنّ الإسلام في عصوره الأولى عرف حركات سياسيّة تطلّع بعضها إلى سدّة الحكم فيما عمل آخرون على تأسيس إمارات موازية للسّلط الحاكمة بل بلغ الأمر حدّ السّطو على بعض الرموز المقدّسة لدى المسلمين كالحجر الأسود أو استحلال البيت الحرام في زمن الحج وهوزمن مقدّس لأنّ المسلم يعيش فيه أرقى مقامات كينونته.

تأكيد أنّ مكّة كمكان مقدّس هي ضمانة لتماسك المجتمع المسلم؛ فالشعائر التي يمارسها الحجاج من شأنها أن تعمّق أواصر العلاقة بين المسلم وأخيه المسلم فحينما يشعر الفرد بانتمائه لهذا النسيج يتعزّز فيه الإحساس بالقوّة والعزّة والثقة. وينضاف إلى هذا الدور الاجتماعي الدور الاقتصادي والثقافي وحتى السياسيّ.

وتأسيسا على ما سبق يؤكّد البحث ضلوع السّاسة وأصحاب المآرب في تدنيس مكّة وغيرها من الأماكن المقدّسة في تلك الحقبة لأنّ منبرها عدل به هؤلاء عن مساره الصحيح فبدل أن يكون منبرا لوعظ النّاس وإرشادهم إلى ما ينفعهم في العاجلة والآجلة أضحى منبرا للدّعاية السياسيّة وما أكثر الخطب التي مجّدت الحكّام والساسة وهكذا تضعف السّلطة المعنويّة والرمزيّة للمكان المقدّس.

بيان أنّ التّدنيس وإن طال مكّة في فترات معيّنة فإنّ ذلك لا يعني أنّها حالة دائمة بل كان التّدنيس يعكس حالات الوهن التي بلغها المجتمع الإسلامي في بعض فتراته فأمست المقدّسات المكانيّة لقمة سائغة بأيدي النّاقمين والمتنفّذين وذوي الأهواء ورغم كلّ ذلك نقول أنّ دوام الحال من المحال فسرعان ما تستعيد الأماكن المقدّسة بريقها وجاذبيّتها ويقيّض الله لها رجالا يذودون عنها بالغالي والنّفيس.

ومن هنا يوصي البحث بـ:

مزيد العناية بالمقدّسات الإسلاميّة وعلى رأسها مكّة والقدس قبلة المسلمين الثانية، بل الواجب على الأمّة أن تهبّ فرادى وجماعات للذّود عنها وعن حرمتها وأن تنصر شعبها في قضيّته العادلة وأن ترفع الدّنس عن هذه الأرض لأنّ فيها ما يستحقّ الحياة.

ضرورة إيلاء الحكومات ووزارات الإشراف العناية اللاّزمة لسائر المساجد ببلادنا لأنّها هي الأخرى أماكن مقدّسة وأن تنتدب لخدمة هذه الدّور رجالا يحبّبون النّاس فيها وينوّرونهم بالعلم والإيمان.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم

2- الأزرقي، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح، دار الأندلس للنّشر، بيروت –لبنان، د.ت.

3- الأصفهاني، أبوالفرج، الأغاني، تح: علي بن محمد بن الحسن الأموي، دار الكتب المصرية، د.ت،

4- أفاية، محمّد، الغرب المتخيّل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلاميّ الوسيط، المركز الثقافي العربي للنّشر، بيروت–لبنان، ط1، 2000

5- الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهليّة والإسلام، دار العروبة للنّشر والتّوزيع، الكويت، ط4، 1993.

6- البخاري، الجامع المسند، تحقيق محمّد بن زهيّر النّاصر، دار طوق النّجاة، ط1، 1422هـ .

7- البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب بيروت–لبنان، ط/3، 1982

8- لبلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت–لبنان، ط1، 1996.

9- الجمل، بسّام، ليلة القدر في المتخيّل الإسلامي، دار خطوات للنّشر، دمشق –سوريا، ط1، 2007.

10- ابن الجوزيّ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 1992.

11- بن حجر، الإصابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 1415هـ.

12- بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة البخانجي، القاهرة –مصر، د.ت

13- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت –لبنان، ط2، 1995

14- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت–لبنان، ط2، 1988.

15- ابن خياط، خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، 1397هـ

16- الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، ط2، 1993.

17- شاكر، سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، ط1، 1981

18- الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسّسة الحلبي، د.ت.

19- الشيباني، محمد بن عبد الهادي، مواقف المعارضة في عهد يزيد بن معاوية، دار طيبه الرياض، ط/2، 2009.

20- بن عساكر، تاريخ دمشق، عمروبن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1995.

21- أبوالعرب، المحن، تحقيق عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض، السعوديّة، ط1، 1984

22- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط8، 2005

23- ابن كثير، البداية والنّهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1988.

24- لالاند، الموسوعة الفلسفيّة، ترجمة وتحقيق خليل أحمد خليل، دار عويدات للنّشر والطّباعة، بيروت، ط2، 2001

25- ابن ماجه، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، د.ت.

26- مرسيا إلياد، المقدّس والمدنّس، ترجمة عبد الهادي عبّاس، دار دمشق-سوريا، ط1، 1988

27- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، ط3، 1414هـ

المراجع الأجنبيّة:

1- Durkheim Emile: Elementary forms of Religious Life, London: G. Allen Unwin, New York, Mack Millan, 1915 .

2-Jean Chevalier, dictionnaire des symboles, Edition revue et augmentée. Robert Laffont/ Jupiter.